

## الإعمار المصري في السودان - دراسة وثائقية

### تنظيمات إدارية وفنية ومالية\*

للفترة من ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م

عندما تولى الخديوى إسماعيل الحكم (١٨٦٣ - ١٨٧٩) عمل على استكمال فتح السودان للوصول إلى حدود مصر الطبيعية والتي تشمل مصب نهر النيل وروافده ووداية ، فوسع من نطاق ومساحة النفوذ المصري في السودان ، وتعد أمام نفسه والجميع بأنة سوف يدخل إلى السودان احدث السبل الحضارية في التنظيم والإدارة والتعليم والعمارة ، لأنه كان مدركاً بحسه السياسي مدى أهمية وحدة وادى النيل ، التي هي أساس نهضته ودعائم حضارته على مر الزمان<sup>(١)</sup>.

ولإرساء أساس قوى للوجود المصري بالسودان ، عمل على نشر الأمن في ربوعه ونشر العمران على أراضيه ، مستخدماً احدث النظم والأدوات ومعدات العصر ، لتكون الجسر الذي يعبر عليه السودان نحو التحضر والتمدن والعمران<sup>(٢)</sup>.

ولذلك قام ببناء المدن والقرى الجديدة ، ومد إليها الطرق والمياه العذبة النقية ، وانشأها الترع والحصون والمساجد والمدارس ، والمستشفيات والمخابز والطواحين ، ووحد العملة والموازين والمكاييل ، وصادر الأوامر بضرورة تعليم أهل البلاد الصناعات والمهن المختلفة وخاصة مهنة المعمار حتى أصبحت بلاد السودان فى عصره تتمتع بدرجة من التحضر والتمدن

- وكان تخطيط وتنظيم شئون البلاد يتم من خلال المكاتبات الرسمية المتبادلة بين الإدارة الخديوية فى مصر المحروسة وحكمدارية السودان المكلفة بنشر الاعمار والعمران<sup>(٣)</sup>

- ولذلك كان عليها اتباع تلك الخطوات لتحديد وتخطيط المشروعات العمرانية المطلوب تنفيذها :-

أ. حسن عبد الله - معهد الدراسات الإفريقية .

(١) عبد العليم خلاف : كشوف مصر الأفريقية فى عهد اسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م ، ص ١٤ - ١٥ .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

(٢) عبد الرحمن الرفاعى : عصر اسماعيل ، الجزء الاول ، ص ١٠٩ ، دار المعارف ، القاهرة .

١٩٨٧ .

(٣) محافظ أبحاث السودان : محفظة رقم ٢٢ ، من حكمدار السودان إلى المعية السنية دفتر ١٣٦

وارد معية سنية ، صفحة ٢٦ ، وثيقة رقم ٦ ، بتاريخ ٤ محرم ١٢٨٧ هـ ، بخصوص تنظيم

المنشآت المعمارية بمدن وقرى السودان، انظر ص ٨ .

### دراسات في آثار الوطن العربي ٣

أولاً :- أن تحدد الحكمدارية المشاريع العمرانية اللازمة والضرورية ، على أن تكون الأولوية طبقاً لدرجة الاحتياج إليها .

ثانياً :- دراسة المشاريع على الطبيعة ، مع تعيين مساحة الأرض المطلوبة ، مع تحديد الفوائد العائدة منها نسبياً إلى التكلفة الإجمالية المقترحة ، والفترة الزمنية اللازمة للتنفيذ .

ثالثاً :- بيان كيفية الحصول على المواد الخام اللازمة للبناء ومصادرها ، وكم المهندسين والعمالة الفنية والعادية مع إيضاح العدد المتوافر منهم بالسودان ، والعدد المطلوب استحضاره من مصر .

رابعاً : بعد إتمام تلك الخطوات ، يتم إرسال كل تلك المعلومات على شكل مقايضة هندسية إلى الإدارة الخديوية ، ويتم عرضها ، ويصدر الأمر بالقبول والموافقة من عدمة .

خامساً :- وفي حالة الموافقة يتم إعطاء وإرسال التوجيهات الهندسية والإدارية والفنية وذلك بعد استشارة المجلس المخصوص ، وديوان الأشغال العامة ، والداخلية ، وفرع المهندسين برئاسة أركان حرب الجيش المصرى ، وديوان المالية للنظر فى مقدار التكاليف<sup>(٤)</sup> وكيفية سدادها.

- وهكذا فانه من خلال تحليل منهجى لتلك المكاتبات الرسمية والتى هى الوثائق التاريخية خاصة البحث ، يمكن لنا أن نتتبع حركة ونشاط الاعمار المصرى فى السودان بالتنظيم الفنى والمالى والادارى وكذلك إلقاء الضوء على ما كان سائد فى مجال العمارة والعمران بأقاليم السودان فترة البحث .

فقد كان المستخدم من مواد البناء إلى هذا التاريخ ، وهو الطين والطوب الأخضر والخشب وبالتالي فقد كانت الخسائر المالية سنويا تبداً كبيرة على حجم الخزانة العامة لمالية السودان ، فنتيجة انهيار معظم المباني مع هطول الأمطار وبالتالي كان على الحكومة القيام بالمساعدة فى إعادة بنائها لذا فقد كان على الإدارة المصرية ان تعيد النظر فى المواد الخام المستخدمة فى البناء ، فأرسلت الإدارة الخديوية إلى الحكمدارية تعليمات تبداً كمنهج للعمل فى مجال العمارة يجب اتباعه ، بحيث تتوافق خطواته مع فكر الإدارة فى مصر وإستراتيجيتها فى تعمير البلاد ، وتتناسب مع الظروف الاقتصادية السائدة فى المحروسة ، ويتم ذلك بحسن استغلال الموارد الطبيعية

(٤) محافظة أبحاث السودان محفظة رقم ٢١ ، دفتر ٥٨٣ صادر معية سنوية ، صفحة رقم ٢٥ ، نموة ٧١٥ بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٨٦ هـ ، من المعية السنوية إلى حكمدار السودان ، بخصوص التنظيم المالى والإدارى والفنى للعملية المعمارية . انظر ص ١٠ .

المتوافرة بكثرة في الأقاليم السودانية ، وعلى ان يتحقق الهدف باتتبع الخطوات التالية:-

- تعليم وتدريب أهالي السودان على مهنة البناء ، وذلك بايفاد بعض من أهل الحرف في مصر لتولى هذا الأمر ، ليصبح لدى أهل السودان القدرة الذاتية على التعمير والبناء .
- استخدم الأحجار والأجر والحمرة والجير كمواد أساسية في البناء (٥)
- ومن خلال ما تقدم يتوافر العناصر المكونة للعملية المعمارية ، من مواد خام ، إلى المساحات الشاسعة من الأراضي ، مع توافر العمال والأنفار ، واصحاب الحرف المعمارية المختلفة ، إضافة إلى المال اللازم والخبرة العلمية والعملية فيتم توفرها من مصر .
- والتزاما من الإدارة المصرية بالسودان ، بتعليمات الإدارة الخديوية ، ثم إعادة النظر في المواد الخام المستخدمة في البناء ، والذي ينتج عنه توفير المال المنصرف سنويا على إعادة البناء ، اتخذت الإدارة عدة خطوات لتوفير عناصر الحركة المعمارية المطلوبة وهي :-
- تكوين بلوكات عمارة من العساكر السودانية بالخرطوم والتاكة وكردفان وسواكن ومصوع .
- استقدام فنيين من مصر ، حجارة ، بناين ونجارين ، وحدايين ، والقيام بتعليم جملة من الاهالي تلك المهن والصنع .
- توفير الفعلة ( العمالة العادية ) من المحابيس المذنبين ، وتحددت المهمات على الوجه التالي :-
- بالنسبة لضرب الطوب وقطع الاحجار وقطع الاخشاب يتم بمعرفة بلوكات العمارة

(٥) محافظ أبحاث السودان : محفظة رقم ٢٢ ، دفتر ١٨٣٦ و ارد معية سنية صفحة ٢٦ ، وثيقة رقم ٦ بتاريخ ٤ محرم ١٢٨٧ هـ ، من حكمدار السودان إلى المعية السنية ، بخصوص عرض تقرير عن حالة العمران والمواد المستخدمة في البناء والنتائج المترتبة على ذلك . انظر ص ٩ .

- النقل من منبع تواجد المادة الخام الى محل العمارة القائمة ، يتم بمعرفة مراكب الميرى او الجمال وغيره وعلى هذا أصبحت تكاليف العمارة منحصرة في اجرة البنائين والحجارة والنجارين<sup>(٦)</sup>

- وقد تركز العمل في المديرية التي لم يكن بها شئ من العمان للميرى مثل سواكن ومصوع واصبح على الادارة المصرية اعداد التنظيم الادارى والفنى لحركة العمارة المطلوبة ، وان تسعى للقيام ببناء الطوابى الحربية ، والمسكن والقشلاقات ، والشونات والدوايين ، والمستشفيات والمآجد والزوايا والمدارس والارصفة البحرية ، ومحطات السكة الحديد ، ومكاتب التليغرافات ، والجمارك والمخازن ، ولتركز على تطبيق هذا المنهج المصرى المنظم للنشاط المعمارى ، على المجال الدينى وما يستلزمه من عمارة للمساجد والزوايا ، واعداد التنظيم المالى والإدارى والفنى لحركة الدعوة ، وذلك من خلال إصلاح ما هو قائم واعادة تنظيمه<sup>(٧)</sup>

- فقد كانت الأحوال الدينية فى السودان ، تفتقر الى وجود ما يكفى من علماء الدين والفقهاء ، مما جعل وظائف القضاء الشرعى والنيابة والإمامة والتدريس ، تبدو شاغرة وقد نتج ذلك من عدم اهتمام الحكام السابقين لعصر إسماعيل بالعملية التعليمية ، ولذلك انتشرت المعتقدات والشعائر الغير صحيحة ، هذا مع استحالة استقدام مدرسين وعلماء من مصر ، نظرا لقلّة الامكانيات المادية ، فكان لابد للإدارة المصرية ان تزيد من الاهتمام بالجانب الدينى<sup>(٨)</sup>

- وكانت العملية التعليمية تقتصر على تعيين بعض من الفقهاء قليلي العلم ، وصرف مرتبات لهم ، بالاضافة الى مؤنة شهرية لمساعدتهم على التفرغ وزيادة التفقه والتعلم ، مع القيام بالتدريس للنشأ فيما كان يعرف بالمكتب ولكنهم انصرفوا عن تعليم اصول الدين ، مما دفع الاهالى الى تعليم اطفالهم حتى سن السادسة والعاشرة فقط ، وذلك لدفعهم للعمل كرعاة او جمالة او مزارعين .

- هذا فقد طلب حكمدار السودان من الادارة الخديوية الاذن بالموافقة على خطة قد نظمها لزيادة الاهتمام بالتعليم الدينى ، وتلك تتكون من الخطوات التالية:-

(٦) محافظ ابحات السودان : محفظة ٢٢ ، دفتر ١٨٣٦ وارد معية سنية ، وثيقة رقم ٦ ، صفحة ٢٦ ، بتاريخ ٤ محرم ١٢٨٧ هـ ، من حكمدار السودان الى المعية السنية ، بخصوص تنظيم الخطوات الادارية والفنية والمالية لتوفير العناصر الاساسية لحركة العمارة . انظر ص ٩

(٧) محافظ معية سنية تركى ، محفظة ٤٦ جـ ١ ، وثيقة رقم ٤٦ - ٣٩ السودان ، ٢٧ / ٩٧ معية ، ترجمة عربى لمكاتبة من حكمدار السودان للحضرة الخديوية ، انظر ص ١١ .

(٨) محافظ ابحات السودان محفظة رقم ٢١ دفتر ٥٨٤ معية سنية ، صفحة ٢٣ ، نمرة ١١ بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٨٦ هـ ، من المعية السنية الى ديوان الداخلية انظر ص ١٢ .

- القيام بالتفتيش والمرور الدورى على هؤلاء الفقهاء المعينين ، والبحث و التحرى عن اصول مؤهلاتهم العلمية ، مع قطع مرتب من لاعلم له .
- تعيين من يملكون العلم والمعرفة ، كمدرسين ، وذلك بعد عقد الاختيار اللازم لهم على ان يكون ذلك فى مديريات بربرة ودنقلة والخرطوم والتاكة وكردفان وفاشودة ويصرف لهم مرتب شهري مقدارة من مائتين الى ثلاثمائة قرشا ، بالاضافة السى صرف مؤنة من الذرة مقدارها يحدد حسب الحالة الاجتماعية لكل منهم :-
- تحديد عدد الطلبة لكل معلم ، مع اعفائهم من دفع الضرائب والرسوم الاميرية عامة.
- تعيين احد العلماء البارزين فى الخرطوم بعد امتحانة ، ليكون ناظرا وملاحظا على الجميع ، تحت مسمى " شيخ العلماء " على ان يصرف له مرتب مقدارة خمسمائة قرش ، مع صرف ثلاثة ارادب من الذرة شهريا .
- يتعين احد الفقهاء المتقدمين فى العلم ، ليكون قارنا وحافظا تحت مسمى " شيخ الفقهاء " بمرتب شهري مقدارة ثلاثمائة قرش وارثيين من الذرة <sup>(٩)</sup>
- يتعين هيكل ادارى وفنى كل مسجد ، بحيث يتكون من :
- إمام ومؤذن أول ، ومؤذن ثاني ، وفراش ، وملاء للميضة ، على ان تصرف لهم مرتبات شهرية وغلل واحسانات خديوية <sup>(١٠)</sup> ، مع صرف مرتب دائم لانارة تلك المساجد والزوايا من الزيت ، ولكن فى صورة نقدية ، بحيث يشتري بها امام المسجد المسئول الاول بة ، وما يلزم من زيت الانارة <sup>(١١)</sup> .
- ولكن مع ازدياد حجم الازمة المالية فى مصر صدر الامر بعمل وفورات فى المصاريف وقطع مربوط ارباب الاحسانات والمعاشات وائمة المساجد اعتبار من تاريخ ٤ القعدة ١٢٩٠ هـ ، وتصرح لائمة المساجد بالحصول على اطيان زراعية بقدر ما كان مربوط لهم ، وذلك من الارض الخالية من اصحابها على ان يقوموا

(٩) محافظ معية سنية تركى : محفظة ٤٦ ج ١ السودان ، وثيقة رقم ٤٦-٢٨ / ٩٧ وارد معية ، بتاريخ ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٨٦ هـ ، من حكمدار السودان الى المعية السنية ، بخصوص تقرير عن احوال التعليم والارشاد الدينى ، والمقترحات المطروحة لاصلاح مسار الدعوة فى السودان . انظر ص ١٣ .

(١٠) محفظة رقم ٦ السودان وارد بربرة من ١/٤/١٨٨٢ الى ٦/٣٠/١٨٨٢ ، وثيقة بتاريخ يونية ١٨٨٢ ، بخصوص الهيكل الادارى والفنى للقائمين على الجامع الشريف فى بربرة . انظر ص ١٥

(١١) دفتر رقم ١٨٧٣ صادر معية سنية رقم ١ صفحة ٢٦ بتاريخ ٢٣ محرم ١٢٩٠ هـ ، من المعية السنية الى مدير عموم شرقى السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ، بخصوص تنظيم صرف مرتب الزيت اللازم للانارة المساجد . انظر ص ١٦

